العدد 2022 - السنة السابعة
الجمعة 6 صفر 1436 - الموافق 28 نوفمبر 2014
Friday 28 November 2014 - No.2022 - 7th Year

عطا الله ممدوح بين السهل الممتنع وتزاوج المعاني

محاولة للسفر في: حديث أغراب

■ محمد مهاوش

■ عطاالله ممدوح

الليلة المنتفي جناح غراب
والحزن يسرجني على خيوله
الضيقه احيانا بدون اسباب
تأخذ بصدري صوله وجوله
طال السفر يا سكة الغياب
ماعادت الأرياق مبلولة
ليل الشتا قاسي وصبري ذاب
كن الثواني فيه مشلولة
سقرت نظراتي بثقب الباب
يمكن يلوح الحلم واطوله
يشق نوره في ظلامي ثاب
وابني بصدري للأمل دوله
بعض الهقاوي مالها محراب
حلوة ولكن غير مقبولة
العذر لو يشفع لمن هو غاب
نوافذ الشرهات مقفولة
ياصاحبي صوتك حديث اغراب
ياقصر همساته ويا طوله
مبحوح لكن يسرق الألباب
بإحساسه الصادق ومدلوله
طير من أغصان القصيد اسراب
لو كانت الأحلام مقتوله
والصبح من خيوط السحاب ثياب
يشبهك هتافه وهملوله
مادام عزمك باقي ماشاب
الفرس مايخذلك محصوله
بس أنت كافح وافعل الأسباب
يجيك يوم وتريح الجولة
يعني لاتحزن والحياه كتاب
لابد ما تتعاقب فصوله..!!

توطئة:

في هذا النص تزاوج بديع بين المعاني التي تمت صياغتها بقالب شعري جميل، حيث امتزجت عنده الظروف الخارجية التي دفعته لقول هذه القصيدة بعالمه الشعري الداخلي الذي رسم لنا هذه اللوحة الفنية، التي نفذت من خلالها لروح المتلقي عن طريق تجاوز النص والناص لتصل للعنصر الثالث في المسألة الشعرية وهو القارئ المتلقي، وذلك لم يتأت له إلا من خلال تزاوج المعاني المتمرجحة بين صور كلاسيكية تقليدية في الغالب وبين تعابير رومانسية شفافة تسرق القلوب والمشاعر وتشد الانتباه لها، دون ان نلاحظ اي خلل بارز بين مسألة التناسق بين هذه التضادات الكلاسيكية الرومانسية، والتي تمثلت بهذين التعبيرين على سبيل المثال «جناح غراب.. يا سكة الغياب» إذ كانت الصورة الأولى صورة كلاسيكية، بينما العبارة الثانية تعبير رومانسي حديث وشفاف وعذب.

هذا التزاوج بين المعاني لدى الشاعر هو ما دفعه في غالب هذا النص للتوصيف، أو لعل التوصيف هنا جاء كنتيجة حتمية لهذا التزاوج، وكأنه يريد الربط بين الصور الحسية الكلاسيكية والأخاذة التي حركها التعبير الرومانسي وجاءت متوافقة معه، والتي شكلت التنوع الفكري والانتقال السلس السهل بين هذه المكونات الفنية في النص دون ان نلمس الارباك والتشويش، ولعل هذه الحالة مردها عائد إلى انتهاج الشاعر طريقة السهل الممتنع في كتاباته الشعرية كما لمسناها في بعض نصوصه، ولا أكاد أجزم بإطلاق هذا الحكم بشكل عام لأنني لم اتفرغ لقراءة كل ما كتبه الشاعر، لهذا يعتبر الحكم قابلاً للتراجع عنه فيما بعد في حال اكتشاف رأي يدحض هذا القول.

هذا النهج الذي يسير فيه الشاعر، وهو السهل الممتنع، سهّل عنده الجمع بين التناقضات، وأمكنه من مسألة الخلط بين المعنوي والحسي والصورة الخارجية والإحساس الداخلية التي بلورتها التعابير اللغوية عنده.

القراءة:

الليلة المنتفي جناح غراب
والحزن يسرجني على خيوله
الضيقه احيانا بدون اسباب
تأخذ بصدري صوله وجوله

الليل مفتاح الأسرار وكهف الشعراء العاشقين والمتأملين، وفي ليل الشاعر كانت الحياة ظلمات بعضها فوق بعض، انطلق من المنفى الذي شتت أفكار الشاعر، التي أوصلته لوصف الليل «جناح غراب» كدلالة على مدة البؤس والظلام الدامس والشعور باللحس، وصولا إلى الحزن الذي انطلق به في متاهات النفي والتشرد، لهذا جاءت بكل هذا الحضور، وهو ما حاول الشاعر إيصاحه من خلال البيت الثاني بأنه في حالة تجاذب مستمر مع «الضيقة» التي تأتيه «بدون أسباب» وتجتاح نفسه، وكأنه يريد إيصال مفهومه حول الحزن و«الضيقة» بأن حالة النفي والتشرد دائمة الحضور بالنسبة له، أما في هذا الوضع، فقد كانت الحالة متراكمة وثقيلة.

طال السفر يا سكة الغياب
ماعادت الأرياق مبلولة
ليل الشتا قاسي وصبري ذاب
كن الثواني فيه مشلولة

كأنه هنا يطلق العنان لمشاعره أن تسافر، وذلك من خلال «طال السفر يا سكة الغياب»، لكن الشتاء يحكم على هذه الحالة بالتوقف، بما في هذا الشتاء من قسوة وبرد يثير بالموت، وهو ما أشار إليه الشاعر «وصبري ذاب» أي انكمش وفي طريقه للتلاشي أمام مرارة الطريق وقسوة الشتاء التي جعلت الزمن «الثواني» مشلولاً وبلا حركة، وذلك أن قسوة الشتاء لم تؤثر على عواطفه فقط، بل انسحب تأثيرها على الزمن، ولعله يريد القول بأنه لم يعد يشعر بالزمن أو كأنه يعيش في معزل عن الزمن، فلا الزمن ينتمي إليه، ولا هو يشعر بوجود الزمن، وهذه فرضية غير ممكنة، لكن خيال الشاعر وعواطفه حوّلت اللا ممكن ممكنا هنا.

سقرت نظراتي بثقب الباب
يمكن يلوح الحلم واطوله
يشق نوره في ظلامي ثاب
وابني بصدري للأمل دوله

لهذا يميل للتأمل والتمني، التأمل من خلال البيت الأول والتمني عن طريق الجنوح للأماني، وهو في كلا الأمرين يحلم، وذلك ان الحلم دفعه للتأمل وسكب فيه نشوة التمني، إن الشعور بالتشظي الداخلي كما مر معنا سابقا دفه لركوب الأماني والأحلام، التي تعتبر أجنحة العاجز وسفينة المهزوم، وهذا ما حصل للشاعر في هذا السياق، حيث ان احلامه تراكمية توالدية، إذ انطلقت من وراء «يمكن» غير الجازمة «يمكن يلوح الحلم واطوله» ثم قوله «يشق نوره»، فالتخيل هنا جعل المعاني تتزاوج رغم هذا الشعور والتصوير المتوالد، فالحلم لم يلح للشاعر، وعليه لا يمكن ان يطوله اي يناله، وما دام انه لم يكن، ورغم عدم إمكانية حصوله، يقول «يشق نوره»، وكأنه حاصل أمامه، وهذا عائد إلى تراكم الصور الحسية والذهنية لديه التي منحته مرونة التزاوج بين المعاني، وجعلته ينتقل بيسر وسهوله بين المشاهد الشعرية دون تشويش.

بعض الهقاوي مالها محراب
حلوة ولكن غير مقبولة
العذر لو يشفع لمن هو غاب
نوافذ الشرهات مقفولة
ياصاحبي صوتك حديث اغراب
ياقصر همساته ويا طوله
مبحوح لكن يسرق الألباب
بإحساسه الصادق ومدلوله
طير من أغصان القصيد اسراب
لو كانت الأحلام مقتوله
والصبح من خيوط السحاب ثياب
يشبهك هتافه وهملوله
مادام عزمك باقي ماشاب
الفرس مايخذلك محصوله
بس أنت كافح وافعل الأسباب
يجيك يوم وتريح الجولة
يعني لاتحزن والحياه كتاب
لابد ما تتعاقب فصوله..!!

من يقرأ هذه الأبيات، ثم يعيد النظر في عموم أبيات القصيدة يتخيل أن الشاعر يريد أن يرسم أوجاعه على طريقته ووفق مقاسه، ولا يتمنى ان تتكرر مرة أخرى مع سواه، يريد أن يعيشها ويتعايش معه، فهو هنا كمن يسير في طريق طويل وشاق لكنه غير ممل ومحرض على الاستمرار والتواصل في السير، وهو في هذه الحالة يريد أن يزاوج بين حالتين من المعاني، وهي حالة العتب والتوسل، وحالة التمسك بالذات والرغبة في الحفاظ على ما يملك من شموخ، وقد قدم هذه الثنائية التضادية من خلال اعتماده على نهج السهل الممتنع، وهذه الطريقة في الكتابة لا تبدو سهلة المنال وبسيرة الإمساك، لأنها حالة كتابية دقيقة، وذلك أنها بحاجة لموهبة شعرية حقيقية وقدرة شعرية فذة ومهارة في إمكانية السير بين المتناقضات دون عناء أو مشقة، لا يعمد إليها الشاعر عمدا، بل هي موهبة إلهية يمنحها الخالق لمن يشاء من عباده، فإن تعمدها زل وإن تركها ضل، فهي تأتي إلى الشاعر، ولا يأتي إليها.

فالناظر في هذا الكلام يجد قدرة الشاعر في تطويع المفردات، وصفها في نسق تتابعي جميل خلق منها ما يعرف بالسهل الممتنع، والملفت في شعر الشاعر عطا الله ممدوح كما في هذا النص بعده عن التصنع الشعري والتكلف في الكلام، والميل الواضح للعفوية التي جعلته يقع في بعض المطبات كقوله «يشق نوره في ظلامي ثاب» التي أرى أن «ثاب» لم تأت إلا من خلال عفوية الكلام لا إقحام المفردة، وهذه الحال لم تشوه النص رغم حدوثها العرضي هنا، والتي لم تقلل من مسألة التزاوج بين المعاني، إذ أنها حدثت في الصياغة ولم تنسحب على المعنى، ولعل انغماس عطا الله ممدوح بمثل هذا النوع من الكتابة هو ما ميزه شعريًا بين أقرانه الشعراء، وها نحن نلاحظه في نص شعري آخر، وهذا النص من السهل الممتنع أيضا، إذ أنه يسير بين المتناقضات، فلا هو بالتقريري ولا هو بالتصويري، أي يقف بين المجاز والكلام المباشر، وهذا النوع صعب رغم سهولته وسهل رغم صعوبته، لا يتوفر للشعراء في كل الأوقات، بما فيهم عطا الله ممدوح نفسه، لأنه ينبع من حالة أشبه ما تكون بالوارد كما عند المتصوفة أو الإلهام في عرف الشعراء.

صدري على زلة الغالين مشعود
ياكم دفن زلة ما بين طياته
بالصبر والعفو والتقدير متزود
ولولا تغاضيه ما دامت علاقاته

من البيت الأول تبدو بجلاء لعبة الإيحاء، ومهارة الشاعر في توظيف المجاز، حيث إنه لم يقل بأن قلبه بئر لا قرار له، يدفن كل شيء في داخله، ولم تتضح هذه الرؤية للمعنى إلا مع الكلمة الأخير في البيت، إذ أنه ترك الأنفاس محبوسة، والذهن أشبه ما تكون بالصحراء الممتدة على مرأى البصر، حيث لا شيء واضح فيها، ولا ملامح تحدد أبعادها، وهذا ما كان مع البيت الأول، وحقيقة أن «صدري على زلة الغالين متعود... ياكم دفن زلة» لا يوجد فيه ما يلفت الانتباه، غير أن «ما بين طياته» حددت الفارق بين الشعر واللا شعر، وكأن الشاعر من حيث علم أو لم يعلم، لم يشأ أن يوتر الذهن والأعصاب إلا من مع «ما بين طياته» التي ألمت شتات المشاعرة ووضعتها على دروب الشعر وفي ركاب الشعراء، ثم يقوم بتوضيح هذه الأمور التي دفعته للتحمل، وهي «الصبر والعفو والتقدير» ومن يتأمل هذه المكونات يجد أنها في الوقت الذي تتداخل فيه، إلا أنها متباعدة عن بعضها البعض.

وفي عودة للأبيات المعتمدة في هذه الدراسة نجد أن الشاعر قريب لدرجة البعد، وبعيد لدرجة القرب، فلا هو الأول ولا هو الآخر، بل هو الإثنان معًا على نفس المستوى وعلى خط واحد، وقد تلمس التزاوج بين المعاني أيضا بين الحكمة والشعر، فلا هو بالشاعر المحض ولا هو بالحكيم الواعظ، إذ أخذ من كل طرف ما يريد وعلى قدر ما يناسبه، لأنه لا يريد أن يشبهه أحد حتى في جروحه وآلامه، وهذ الأسلوب أرّق الشعراء وأتعبهم في كل العصور والأزمنة، لا يمكن تعلمه.

محمد مهاوش الظفيري

أخر رسائل المتنبي لكافور الأخشيدي

ياسيدي حلمك علي بزسم على كفوفي مدن
حلمي اعيش بها الزمن وأملك مدينه رافله
وارسم خريطتها حدا لازارت درويي هجن
وأبسط لها كف الوعد لاشرفتني القافله
بيني وبينك ملتقى مثل احتضاري والكفن
وتضحكني عيون بدت ليلة عناقي حافله
جيتك وحضن الملتقى يزهر علي الموعد غصن
ياسيدي جف الغصن وين الصلاة النافله
ياسيدي دربي قصر وخطاي بدرويك كبن
كان التنبؤ غلطتي واحرف اجيال غافله
خذني مع حبل المد واقطع بي عروق الفتن
ياسيدي عرش الشعر اصبح قصيده سافله

عبدالرزاق الدليلي